كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
College of Sharia & Islamic Studies
مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
Journal of College of Sharia & Islamic Studies
نصف سنوية – علمية محكمة
Academic Refereed – Semi-Annual
ISSN 5545 – 2305
المجلد ٣٣- العدد ٢ – خريف ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥ -٢٠١٦ م
Vol. 33- No.2, 2015-2016 A / 1437 H

وحدةُ الجماعة وأهمِّيَتُها في رُقِيِّ الأمَّة من منظور قرآني

تأليف

د. عدنان بن عبد الرزَّاق الحموي العُلَبِي
الأستاذ المشارك للتفسير وعلوم القرآن
قسم الدراسات الإسلامية _ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

ملخَّص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام التامَّان الأكملان على نبيِّنا محمد، إمامِ الأنبياء والمرسلين، وخيرِ مَن وحَّد الجماعة، وقاد الأمَّة إلى برِّ الأمان وأمنِ السلام، وعلى آله وصحبه وتابعيه الذين فتحوا الدنيا بنور القرآن وهدي الإسلام، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن أهم ما يميِّز الأمة الإسلامية ما حباها الله تعالى من خصائص وحدتها واتحادها، وعوامل رفعتها ونهضتها، تلك التي حفظت لها قدرها ووجودها، وسمَت بمكانتها إلى مصافِّ الأمم الراقية، بعد أن كان العرب في الحضيض، يتخبَّطون في جهالة التخلف والظلم والاضطهاد. قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، إلا أن هذه الوحدة ما كانت لتتحقق عملياً، ولا لترى النور فعلياً، لولا أنها بُنيت على معالم ثابتة من الخير والعدل والصدق والفضيلة، وأقامت صرح نهضتها على أسس راسخة من مقومات البناء والنماء، وتمثَّلت في سلوك وسيرة ثلة من الصفوة، كانوا الدعامة الصلبة فيها، والركن الأساس لها، بما اتصفوا به من إيمان وتضحية، فحققوا الرقي والثبات والتقدم، بكل ما تحويه الكلمة من معاني القيم السامية، والفضائل الراشدة، وأناروا العالم بضياء الإسلام ونور القرآن، فدعَوا إلى الاعتصام بحبل الله المتين، والوحدة والائتلاف، ونهَوا عن اتباع مسالك الشيطان، والتشرذم والتشتت، والفرقة والاختلاف، فكانوا إخوة متحابين، استحقوا نصر الله تعالى وريادة العالم، وقيادة مركب البشرية نحو الأمان والسلام. قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

من هنا جات فكرة هذا البحث لتتناول موضوع: (**وحدة الجماعة وأهمِّيَتها في رُقِيِّ الأمَّة من منظور قرآني**)، ضمن خطة تفرعت إلى مقدمة تبحث في أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والباعث عليه. يليها التمهيد، ويبحث في تحديد مفاهيم الوحدة والجماعة والأمة، وما يتصل بها من تعاريف، يعقبه المبحث الأول، ويبحث في مقومات الوحدة، وخطوات تحقيقها، ضمن مطلبين اثنين، ثم المبحث الثاني، ويبحث في مظاهر وحدة الأمة، ومعالم بناء الجماعة، ضمن مطلبين اثنين، يليه

المبحث الثالث، ويبحث في خصائص الأمة الإسلامية، وعوامل رقيِّها، وأسباب تردِّيها، ضمن مطالب ثلاثة، لنصل إلى الخاتمة بما تتضمَّنه من نتائج مستفادة، وتوصيات مقترحة. مع الالتزام بضوابط البحث العلمي أصولاً. هذا وبالله التوفيق.

Abstract

The most important characteristic of the Islamic nation that God endowed of unity and union characteristics, and factors of its renaissance, the ones that kept its existence, marked its status to the level of high-end Nations, after the Arabs were in the gutter, scrambling in the foolishness of backwardness, injustice and oppression. قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، However, this unity would not have been realized in practice, and to see the light actually, without building on the fixed parameters of goodness, justice, honesty and virtue, and establishing renaissance on the firm foundations of the elements of construction and development, and was the behavior and the biography of a group of elite, who were the corner's base, and had faith and sacrifice, so they were able to show prosperity, stability and progress, in every sense of the word from the meanings of the noble values and virtues of an adult. قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] From there the idea for this research on the subject (The unity of the group and its importance to the advancement of the nation in the Quranic perspective), part of a plan branched out to the front looking at the importance of the subject, and the reason it was chosen. Followed by an introduction, looking to identify the unity and related definitions, followed by the first section, and looking at the elements of the unity, and steps to achieve it, within two demands, and then the second section, looking at aspects of the nation's unity, within two demands, followed by the third section, looking at the characteristics of the nation, and the causes of its death, and factors of its advancement, within three demands, to reach a conclusion and recommendations proposed.

المقدمة:

وفيها: **أهمية الموضوع**: من الإنصاف أن يُنظَر إلى أي مشروع من خلال نتائجه ومخرجاته، ومن الظلم أن يُحكم عليه من خلال زوايا ضيقة حرجة فيه. والحق أن الإسلام قد سما في مشروعه الحضاري سموًّا مشرِّفاً في رسالته، ذلك أنه دين الله الخالد الذي ارتضاه الله سبحانه للبشرية. قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذا الدين العظيم بأهدافه ومبادئه وخصائصه ومنهجه، قد أثبت عملياً صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين عالمي. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وتعدُّ الوحدة في الرؤية والرسالة والعقيدة والكلمة والجماعة من أهم مقوماته، وعلى رأس أولوِّياته، وفي سُلَّم أبجديَّاته، ذلك أنها عنوان كل فلاح ونجاح، وضدها الفرقة نذير كل فشل وخذلان. وقد أثبت التاريخ على امتداد أزمنته أن الفتح الإسلامي قد شهد مدًّاً وجزْراً بسبب الوحدة والفرقة، فحين كانت القلوب متحدة على كلمة سواء، كان الفتح والعزُّ والتمكين، وحين دبَّ بالأمة داءُ الأمم كانت الحالقة. ولا شك أن التنبيه والتركيز على أمر وحدة الجماعة بات ضرورة في عصر تشهد الساحة الإسلامية، بل العالم بأسره، توترات حادة، وتجاذبات خطرة، لا بدَّ للدين من بيان موقفه منها، وحُكمه فيها، وتشخيص أسبابها، وتحديد عللها، وكشف آثارها، وتوصيف علاجها.

الباعث على اختيار الموضوع: الحديث عن هذا الموضوع في هذا التوقيت هو حديث الساعة، والحاجة ماسة للبحث فيه، تحليلاً وتأصيلاً، وتنويراً وتحذيراً. ذلك أن الساحة العالمية تشهد صراعات نفوذ تستغل الإسلام بمعتقده وفكره، وشبابه وطاقاته، وأهدافه السامية، ومشاريعه الحضارية، لتقضي عليه من داخله، وعلى أيدي أبنائه وأهله، وبإمكانياتهم البشرية والطبيعية، فالأعداء حين عجزوا عن مواجهة المدِّ الطبيعي للإسلام في أصقاع الدنيا، لجأوا إلى البطش به بوسائل استعمارية حديثة، عن طريق بثِّ الفرقة والخصومة بين أفراده، وإذكاء روح الخلاف والعداء بين فئاته، بشتى الوسائل والآليات، لتشويه سمعته، وتقبيح صورته، حتى أصبح شائعاً على الألسنة، وبدا يُسوَّق إعلامياً

وتحريضياً أن الإرهاب سمة هذا الدين، وغدا حِلُّ التكفير والتقتيل والتضليل مشرَّعاً، معلَّلاً بفتاوى جائرة، وحجج واهية ليغدو مبرَّراً قانونياً، بل أصبح ينظر إلى الإسلام على أنه دين التشتت والتمزق والبطش والظلم، وكلها مسمَّيات ظالمة، وفدت على الإسلام،وشوَّهت صفاء سمعته، مما كان من الضروري إماطة اللثام عن الحقيقة، والبحث في أسباب وحدة الأمة واتفاق الجماعة، وبيان طريق الخلاص من هذه الأزمة الوافدة على الإسلام، والتي لا دخل له بها، وهو منها براء، بل هي صنيعة أعدائه المتربصين به. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

التمهيد: وفيه تحديد مفاهيم الوحدة والجماعة والأمَّة، وما يتصل بها من تعاريف ذات صلة.

أولاً: مفهوم (الوَحدَة) لغة: الانفراد[١]. **(الوَحدَة) اصطلاحاً:** تطلق الوحدة ويراد بها عدم التجزئة والانقسام، وكون الشيء لا ينقسم. ويكثر إطلاق الواحد والفرد بهذا المعنى. وقد تطلق بإزاء التعدد والكثرة. وشرُّ الأمة (الوحدانيّ) للمبالغة، منسوب للوحدة، وهو المفارق للجماعة، المعجب بدينه، المنفرد بنفسه، المرائي بعمله. والوحدة في النظام السياسي: اتحاد دولتين أو أكثر في الرياسة والجيش والاقتصاد[٢].

لفظ (الوحدة) في القرآن الكريم: لم يرد لفظ (الوحدة) في القرآن الكريم، إنما وردت مفردات عدة ترجع إلى أصل معنى (الوحدة)، بمعنى الاتحاد والتوحد، وعدم التجزئة والتفرقة؛ كالدعوة إلى الاعتصام، والتآلف، والتآخي، والنصرة، وإجماع الأمر، وتوحيد الصف، وغيرها من المعاني المقاربة.

ثانياً: مفهوم (الجماعة) لغة: مأخوذ من الاجتماع، وهو ضدُّ التفرُّق، يقال: جَمَع الشيء عن تفرقة فاجتمع، وجمعت الشيء إذا جئت به من هاهنا وهاهنا، وأجمع أمره: أي جعله جميعاً بعدما كان متفرقاً، والجمع اسم لجماعة الناس، والجماعة والجميع والمجمع كالجمع، وقد تستعمل الجماعة في غير الناس، حتى قالوا: جماعة الشجر، وجماعة النبات[٣].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور: ١٦٦/١٥.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ١٧٩/٥، والكليات، الكفوي، صفحة: ٩٣١، والمعجم الوجيز: صفحة: ٦٦٢.

(٣) مختار الصحاح، الرازي: صفحة: ١١٠، ولسان العرب، ابن منظور: ١٦٦/١٥، والمعجم الوجيز: صفحة: ١١٦.

(**الجماعة**) **اصطلاحاً**: هي الطائفة من الناس، يجمعها غرض أو رابط واحد فأكثر؛ كالقرابة أو الجنس، فهي بهذا المفهوم جزء من مكونات المجتمع، كما يطلق لفظ الجماعة على القوم المجتمعين، في حين أن مفهوم الأمة أوسع وأشمل، وخاصة في ضوء المنظور الإسلامي الذي يعنينا في هذا المقام. وقد ذكر ابن الأثير في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]. قال: الشعوب: الجُمَّاع، والقبائل: الأفخاذ. والجُمَّاع: مجتمع أصل كل شيء، أراد منشأ النسب، وأصل المولد. وقيل: أراد به الفِرَق المختلفة من الناس كالأوزاع والأوشاب، ومنه الحديث: (كان في جبل تهامة جُمَّاع غصبوا المارة)، أي جماعات من قبائل شتى متفرقة[١].

لفظ (الجماعة) في القرآن الكريم: لم يرد لفظ (الجماعة) في القرآن الكريم، إنما ذكر فيه ما يتصل بالمعنى اللغوي؛ أي: في مقابلة التفرق والتنازع، من الحثِّ على الاعتصام، وملازمة الجماعة، والاجتماع على كلمة سواء، والنهي عن الاختلاف والتحزُّب، ونبذ الفرقة، وغيرها من المعاني المقاربة.

ثالثاً: مفهوم (الأمة) لغة: يعود اشتقاق لفظ (الأمَّة) في اللغة إلى أحد جذرين لغويين هما: (أمَّ)، و(أمَمَ)، وعنهما تتفرع أصول عشرة لمعناهما، وهي: الأصل والمضم والمجمع، والجماعة من الناس والجنس من الحيوان، والدين والنِّحْلة والطريقة، والنعمة والحالة والشأن، والمرجع وكل ما اقتُدي به وائتُمَّ به وقُدِّم في الأمور، والقصد والتوخِّي والتعمُّد، والقريب والهيِّن والوسط، والقامة والصورة، والحين والزمان، والغفلة والجهالة[٢].

(**الأمَّة**) **اصطلاحاً**: أصل الأمَّة: الصنف من الناس والجماعة. والأمَّة: كل جماعة يجمعهم أمر دين واحد، أو مكان واحد؛ سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً: كالجنس واللون، أم اختياراً: كالمعتقد والأرض، وجمعها أمم[٣].

لفظ (الأمَّة) في القرآن الكريم: استُعمل لفظ (**الأمَّة**) في القرآن الكريم أربعة استعمالات:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني: صفحة: ١٠٩، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٢٦٩/١.

(٢) مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث النبوي، حميدي: صفحة: ٢٣.

(٣) تأويل مشكل القرآن، الدينوري: صفحة: ٤٤٥، ومفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني: صفحة: ٣٢.

الأول: استعمال (الأمَّة) في: البُرهَة من الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

الثاني: استعمالها في: الجماعة من النَّاس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ [البقرة: ٢١٣]، وغيرها كثير.

الثالث: استعمالها في: الرجل المُقْتَدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

الرابع: استعمال (الأمَّة) في: الشريعة والطريقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات[1]. ويمكن أن نعرِّف الأمة الإسلامية في ضوء دلالات هذه النصوص بأنها: جماعات من الناس تجمعهم عقيدة الإسلام، بِغَضِّ النظر عن أي اعتبار، ويشهد لهذا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

إن الدول الغربية لم تستطع أن تنطوي كلها تحت أمة واحدة، على الرغم من وجود روابط كثيرة بينها، وما زلنا نسمع مصطلح الأمم الأوروبية، ومثلها كذلك الدول الأفريقية، فإنها على ما بينها من روابط تسمى الأمم الأفريقية، في حين أننا لا نطلق مصطلح الأمم الإسلامية، بل هي أمة إسلامية واحدة، على الرغم مما بين أفرادها من اختلاف في اللغة والجنس والأرض، وهذا يعني أن الأمة الإسلامية تتكون من عدة مجتمعات لاعتبارات تفرض نفسها، لكن التوافق بين المجتمعات الإسلامية ملحوظ، بسبب اتفاقهم على مرجعية واحدة عليا، وهي الإسلام.

رابعاً: تعاريف ذات صلة: ونتناول أهم الألفاظ المقابلة والمقاربة لمصطلح الأمَّة، ونُبَيِّنُ وجه الارتباط، ونوع العلاقة والصلة في المقارنة بين مصطلح الأمَّة وهذه التعاريف:

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي: ١٧٣/٢.

أولها: القبيلة: الجماعة المجتمعة من الناس تنتسب إلى نسب واحد، وترجع إلى أصل أب أو جد واحد، ويقبل بعضها على بعض. وجمعها قبائل. ووردت مرة واحدة بصيغة الجمع في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ويأتي القبيل بمعنى الضامن والكفيل. قال تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]. ويأتي بمعنى الجيل، والجند والأتباع. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والقبيلة علاقة ترادف، وهي من علاقات الائتلاف(١).

ثانيها: الوطن: لغة: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، ومكان إقامة الإنسان ومقرُّه، وُلِدَ به أم لم يولد، وجمعه: أوطان. وأوطنَه: اتخذه وطناً. يقال: أوطنَ فلان أرض كذا وكذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيه(٢). واصطلاحاً: **المواطنة:** هي علاقة بين فرد ودولة، ورابطة بينهما يتمتع المواطن بجنسية الدولة كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة، وهي تسبغ على المواطن حقوقاً سياسية؛ مثل حق الانتخاب، وتولِّي المناصب العامة. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والوطن علاقة ترادف، تهدف إلى اندماج وانتماء وتفاعل، لبناء مجتمع صالح شامل متعدد الأبعاد(٣).

ثالثها: القوم: الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها، والجمع أقوام. وقوم الشخص أقاربه وأهله وعشيرته. والقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم، أو يقومون بأمره. وقد ورد مصطلح (القوم) في القرآن في ثلاث وثمانين وثلاثمائة مرة، مقترناً بلفظ (الأمَّة) في ثلاثة مواضع منها، وجاء مضافاً إلى نبي من الأنبياء، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ــ١٤]، ليدل على رابطة الوطن وغيرها من الروابط الاجتماعية، كما جاء مضافاً إلى مُلْك فرعون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧]، ليدل على الرعية التي يرعاها، ويدير شؤونها. ويلاحظ أن

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني: صفحة: ٤٠٩، ومختار الصحاح، الرازي: صفحة: ٥٢٠، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي: صفحة: ١٣٥١، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ٢٢٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ٢٣٩/١٥، والمعجم الوجيز: صفحة: ٦٧٤.

(٣) المواطنة والوطن، الصلابي: صفحة: ١٩.

العلاقة بين الأمَّة والقوم علاقة مزدوجة، وجهها الأول هو الانتماء والائتلاف، ووجهها الثاني هو الاستقلال والاختلاف[1].

رابعها: العِصَابَة والعُصْبَة: الجماعة من الناس، وأقلها عشرة. وأصلها من استدارة الشيء بالشيء وإحاطته به، والعصبة الأقارب من جهة الأب، لأنهم يعصبونه ويتعصب بهم، أي يحيطون به ويشتد بهم، وقد وردت في القرآن الكريم بلفظ (عصبة) في أربعة مواضع، تدل في مجموعها على معنى الجماعة. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والقوم علاقة مزدوجة، وجهها الأول هو العموم والشمول، ووجهها الثاني هو الخصوص والتميز، فبينهما عموم وخصوص، من علاقات التداخل والتكامل[2].

خامسها: الشَّعْب: هو كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون إلى أب مشهور بأمر زائد؛ كعدنان، ودونه القبيلة؛ وهي ما انقسمت فيها أنساب الشَّعب، كربيعة ومضر، ثم العمارة؛ وهي ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش وكنانة، ثم البطن؛ وهو ما انقسمت فيه أسباب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم، ثم الفخذ؛ وهو ما انقسمت فيه أسباب البطن كبني هاشم وبني أمية. مما يعني أن الشَّعْب يمثل أوسع جماعة بشرية يربطها رباط النسب. وقد ورد في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة الجمع. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والشعب هي علاقة ترادف، وهي من علاقات الائتلاف[3].

سادسها: الحِزْب: وهو الجماعة فيها غِلَظ، أي لها شوكة وقوة، تتحزَّب على الأمر، أي تتعاون عليه، وحِزْبُ الرجل: الجماعة التي تعينه فيقوى أمره بها، وهي الطائفة يجمعهم الاتجاه إلى غرض واحد. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في عشرين موضعاً؛ ثمانية منها بالمفرد، وواحد بالمثنَّى، والباقي بالجمع، ودلَّ في مجموعها على الجماعة التي يجمعها أمر ما، سواء كان اجتماعها على الحق،

---

(١) مختار الصحاح، الرازي: صفحة: ٥٥٧، ولسان العرب، ابن منظور: ٢٢٨/١٢، والكليات، الكفوي: صفحة: ٧٠٣، ٧٢٩، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ١٩٤.

(٢) مختار الصحاح، الرازي: صفحة: ٢١٠، وتاج العروس: ٣٨٢/٣، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ٢٢٢.

(٣) لسان العرب، ابن منظور: ٥٤١/١١، والكليات، الكفوي: صفحة: ٥٢٤، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ٢٢٦.

أو على الباطل. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والحزب هي علاقة ترادف، وهي من علاقات الائتلاف[١].

سابعها: الطائفة: أصلها من الطَّوْف، وهو دوران الشيء على الشيء، وهي كل جماعة يمكن أن تطيف بشيء وتحفُّ به، وأقلها ثلاثة، واختلف في حدِّها الأقصى، والطائفة من الناس جماعة منهم، ومن الشيء القطعة منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد وردت باستعمالها على الحقيقة لا على المجاز في أربعة وعشرين موضعاً؛ عشرون منها بصيغة الإفراد، وأربعة بالتثنية. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والطائفة هي علاقة مزدوجة، وجهها الأول هو الانتماء والعموم، ووجهها الثاني هو الخصوص والتميُّز، فبينهما عموم وخصوص، وهي من علاقات التداخل والتكامل[٢].

ثامنها: المجتمع: هو عدد كبير من الأفراد المستقرين، تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة، تصحبها أنظمة تضبط السلوك، وسلطة ترعاها. وليس يبعد تعريف المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، إلا بما فيه من خصائص ومواصفات. وعلى هدْيٍ من هذا يمكن تعريف المجتمع الإسلامي بأنه: خلائق مسلمون، في أرضهم مستقرون، تجمعهم رابطة الإسلام، وتدار أمورهم في ضوء تشريعات إسلامية وأحكام، ويرعى شؤونهم ولاة أمر منهم وحكام[٣]. ويلاحظ أن العلاقة بين الأمَّة والمجتمع علاقة ترادف، وهي من علاقات الائتلاف.

المبحث الأول: ويبحث في مقومات الوحدة، وخطوات تحقيقها، وفيه المطلبان الاثنان الآتيان:

المطلب الأول: مقومات وحدة الأمة الإسلامية. من المسلَّمات أن لكل هيكلِ بُنيانٍ قواعدَ وأركاناً يعتمد عليها، ويستمد قوته منها، وبقدر ما تكون قواعده صلبة، وأساسه متيناً، بقدر ما

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي: ١٣٩/١، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ٢١٨.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني: صفحة: ٣٢٩، ومفهوم الأمة في القرآن والحديث، الحميدي: صفحة: ٢٠٩.

(٣) المجتمع الإسلامي، المصري: صفحة: ١٧، والمجتمع والأسرة في الإسلام، الجوابي: صفحة: ١٤.

يكون البنيان مرصوصاً، ليزيد من نفعه وعطائه، ووحدة الأمة الإسلامية إنما تستمد قوتها وصلابتها من مجموعة عوامل ومقومات، يمكن حصرها وتمثُّلها في الأمور الخمسة الآتية:

أولاً: وحدة الأصل الإنساني: فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم، وتمايز ألوانهم، وتباعد ديارهم، إنما يرجعون إلى أصل واحد، فأبوهم آدم، وأمهم حواء، ولطالما ذكَّر القرآن بهذه الحقيقة وبيَّنها لهم، ليضعوها في اعتبارهم، ويكونوا كالجسد الواحد يشدُّ بعضه بعضاً، متآخين متحابِّين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]. وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسْتَقَرّٞ وَمُسْتَوْدَعٞۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، ولعل هذا الانحدار من أصل واحد، والتفرق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى التآلف والتعارف والتعاون بين بني البشر، لبناء الأرض وعمارتها، لا للتظالم والتباغض والاختلاف، وبث العداوة والشر، سيما وقد افتتحت الآية بالأمر بتقوى الله، وتكرر ذات الأمر في وسطها لتأكيد مضمونها، في وجوب شكر نعمته، والقيام بحقه في التزام أمره. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإذا كان الخطاب عاماً لكافة الناس في إعلان مبدأ المساواة العامة بينهم، فالمسلمون أجدر باتِّباعه، والانطلاق في بناء وحدة أمتهم من خلال هديه وتوجيهه.

ثانياً: وحدة العقيدة: العقيدة أصل من أصول وحدة المسلمين، مأخوذة من العَقْد، وهو الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل في الماديات كعقد الحبل والبناء، وفي المعاني كعقد البيع والنكاح، فكأنه ربطٌ بين الأجزاء، فيقال: عاقدته وتعاقدنا، وعقدت يمينه. والإنسان بفطرته وغريزته يتجه للاعتقاد، ومهما حاول التهرب من هذا الواقع فإنه لا يستطيع الانسلاخ عنه. والأصل في الاعتقاد أن يحيا وينشأ على أصول الفطرة، إلا أن ينحرف عنها بتوجيه المربِّين من أبوين ضالَّيْن، أو بيئة منحرفة، مصداقاً لحديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال سول الله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، وينصِّرانه، أو يمجِّسَانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة ﷺ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ

﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠][1]. والانتماء لعقيدة صحيحة فطرةٌ سوية فيالكائن البشري، ذلك أن الإنسان قد أخذ على نفسه العهد بإقراره بربوبية الله، وشهد بعبوديته له في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢_١٧٣]. وعقيدة المسلمين واحدة، مهما اختلفت أقطارهم، وتعددت أجناسهم، وتباينت لغاتهم. فالعقيدة تجمعهم وتوحدهم على مضمونها من الإيمان بالله ومستلزماته، وتعدُّ وحدة العقيدة من أهم الركائز الأساسية لوحدة الأمة، وإذا كانت أبوَّةُ آدم أبوَّةً مادية تجمع بين أفراد بني البشر بأطيافهم المختلفة، فإن العقيدة الإسلامية أبوَّةٌ روحية ترجع إليها فروع المؤمنين. ورابطة العقيدة أعلى وأغلى وأقوى من رابطة الدم والنسب والجوار والوطن. والقرآن الكريم لم يستعمل مصطلح العقيدة، لكنه تناول موضوعها وهو الإيمان بالله تعالى والآخرة والنبوة والوحي، مع التركيز والتأصيل لحقائقها ومضمونها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ثالثاً: وحدة مصدر التشريع: لا شك أن القرآن الكريم مصدر التشريع، ودستور المسلمين في إصلاحهم، وتنظيم حياتهم، وعلاج نفوسهم، وتقويم اعوجاجهم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤_١٧٥]، وقال تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥_١٦]، والنور هنا كما ذكر المفسرون: النبي ﷺ، أو الإسلام، أو القرآن الكريم[2]، ولما كان

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلَّى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم الحديث: ١٣٥٨، وصحيح مسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار، رقم الحديث: ٢٦٥٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي: ٣٢/٢، والتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الرازي: ١٩٤/١١، وفتح القدير، الشوكاني: ٣٤/٢.

العطف قد يرد للتفسير، فإنما قصد به توافق الآية وما بعدها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]. **رابعاً: وحدة العبادات، وحِكَمِ مشروعيتها الهادفة:** والأصل أن تؤدى العبادات امتثالاً لله تعالى، وتعبيراً عن أداء حقه تعالى، وشكر نعمته. وللعبادات ثمارها الطيبة، ولمشروعيتها حِكَمها الهادفة، وقد تغيب عن أذهان البعض، لكن لا يمنع من البحث عنها، وتلمُّسِها ليزداد المؤمن إقبالاً عليها، ويستشعر فضلها.

فالصلاة: رأس العبادات، وهي صلة بين العبد وربِّه، وهي مطهرة للعبد، مرضاة للرب، مدعاة لتطهير الروح وتزكية النفس، وهي خير ما يستعين به المسلم على امتثال الأمر واجتناب النهي. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، ونلحظ مظاهر الوحدة تتجلى في صلاة الجماعة، وانتظام المصلين خلف إمام واحد، وانتظام توجههم لرب واحد، واتجاههم لبيت واحد، وتلاوة كتاب واحد، وهذا الانتظام يزيل كل الفوارق والطبقات، لذا ضعَّف أجر صلاة الجماعة بضعاً وعشرين مرة، حثّاً عليها، وبُعداً من الانفراد، وانسلاخاً من العزلة، كما سعى أن يخصّص من هذه العبادة صلاة الجمعة كلقاء أسبوعي، وخصَّها باهتمام في الدعوة والسعي للحضور، وتحقيق ذكر الله فيها، إلى جانب المؤتمر السنوي وهو العيد يلتقي المسلمون فيه في مكان واحد في الخلاء يتقدم الرجال، ويلتحق النساء حتى ذوات العذر يعتزلن الصلاة، لكنهن يشهدن الخير ودعوة المسلمين، وتتكرر صلاة العيد مرتين عقب انتهاء شعيرتين وفرضَيْن؛ هما: الصوم والحج.

أما الصوم: فثمرته تعوِّد الصائم على تحقق التقوى والخشية من الله في السر والعلن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أما مظاهر الوحدة فيه فتتمثل في توحيد ثبوت هلال الصوم، برؤيته من عدل واحد، والدخول في ابتداء العبادة، وانتظام أحكامها الفقهية، والإمساك عن المفطرات، ثم الإفطار في توقيت واحد، وفي أيام ثابتة، والخروج من العبادة برؤية مماثلة للهلال، مع ما تربِّي هذه الشعيرة في نفوس الصائمين من استشعار أحوال الجائعين، فيكملون صومهم ليُرفع إلى السماء مقبولاً،

مسارعين لأداء صدقة الفطر قبيل الخروج لصلاة العيد، ليعبِّروا عن رمز الوحدة في هذه الشعيرة المباركة.

وأما الزكاة: فثمرتها تعود على المزكِّي بالتطهر من البخل والشح، وعلى ماله بالبركة والنماء، وعلى الفقير بالخير والعطاء. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣ـ١٠٤]، وقال أيضاً: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ولا شك أن العلاقة الشرعية بين الغني والفقير تجعل منهما جسداً واحداً، يستشعر الألم والشكوى في سائر كيانه، ويعيش الفرحة والسعادة، في عامة أفراده، ويتبادل الهمَّ والسرور معاً، وهذا ما يزيد في وحدة الأمة، وتماسك نسيجها، واتحاد مشاعرها، والتئام شملها، وتأليف قلوب أفرادها على الخير والمحبة والإحسان.

وأما الحج: فصورة وحدة الأمة ظاهرة فيه للعيان، فهو مؤتمر سنوي يَفِدُ إليه المستطيع القادر من أبناء الأمة، يلتقي فيه مع سائر إخوانه الحجاج على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، تنتفي عنهم مظاهر التشرذم والتفرق، وتنمو فيهم أواصر المحبة والألفة، يقفون على صعيد واحد، بلباس واحد، وفي مظهر واحد، يذكِّرهم بالآخرة، وينخرطون في دورة منتظمة بمناسكها، ويلبُّون بلسان واحد، ويؤدون المناسك في أماكن واحدة، وزمن واحد، ويحققون وحدة العبادة، ووحدانية المعبود، ووحدة العباد، ويتجرَّدون من مظاهر الدنيا ليحققوا ثمرة الحج في مغفرة الذنوب، ملتزمين هدفه التربوي. قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

خامساً: وحدة المبادئ والأخلاق: المتتبع لأصول الأخلاق، والتي كانت بعثة النبي ﷺ متمِّمة لمكارمها، يلاحظ أنها إنما تعين على وحدة الأمة الإسلامية، وتقوِّي من اتحادها. ولعلنا في عُجالة نقف على أهم هذه المبادئ والقيم الأخلاقية؛ فنجد في إصلاح ذات البين مدخلاً رحباً لوحدة أبناء الأمة، حيث أمر بالإصلاح، ورأب الصدع، ولمِّ الشمل، وجمْع المتفرقين، على مستوى الأسرة الصغيرة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا

﴿إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وفي محيط الأسرة الكبيرة، حين يدخل الشيطان بينهم فيفسد عليهم وُدَّهم وأُخوَّتهم، فنجد في قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] ملاذاً آمناً للوحدة، حين يشيع الإصلاح بين أفراد الأمة، والصلح العام في الدماء والأموال والأعراض، رفعاً للظلم، ودفعاً للخصومة. قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. كذلك نجد القرآن الكريم قد حضَّ على التحابِّ والتزاور، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الآخر، والنصيحة له، والشفقة عليه، والذود عنه، وكلها جُماع الأخلاق الفاضلة التي يتطلع الإسلام من خلالها إلى المجتمع المثالي في الوحدة والألفة والترابط. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩ــ٢١]، وقال أيضاً: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١][1].

المطلب الثاني: الخطوات العملية لتحقيق وحدة الأمة الإسلامية. لا بدَّ لإنجاز أي هدف، ونجاح أي مهمة، من تحديد خطوات ومراحل تجتازها بخطىً متأنية ثابتة، وتتعدى مراحلها برويَّة وحذق ومسؤولية، سعياً لتحقيق الهدف. ولتحقيق وحدة الأمة الإسلامية خطوات عملية، وهي عديدة، أهمها:

أولاً: إحياء المعاني الربانية؛ من الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلا، والإيمان برسالته والجزاء الأخروي، باعتبارها أهداف الحياة العليا، وغايات الوجود الإنساني. والعمل على دعمها وتثبيتها وحمايتها، ومحاربة نزعات الإلحاد والشك والشرك بكل صوره وألوانه.

(١) معالم الوحدة في طريق الأمة الإسلامية، حمزة والسايح: صفحة: ١١٢.

ثانياً: تربية الأمة على معاني تقوى الله تعالى، والإخلاص له، والثقة به، والتوكل عليه، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كل أعمال الإنسان، واطلاعه على سره ونجواه.

ثالثاً: تثبيت القيم الأخلاقية الأصيلة، والتي توارثتها الأمة كابراً عن كابر، مهتدية بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ الذي بعث ليتمِّم مكارم الأخلاق، ويزيل ما تراكم عليها من رواسب عصور التخلف، وما دخل عليها من تقليد الأمم الأخرى، قديماً وحديثاً.

رابعاً: الاعتزاز بدين الإسلام، بوصفه عقيدة وشريعة وحضارة ونظام حياة، أودع الله فيه الكمال والوضوح والشمول والتوازن والعمق، وغرس هذا الاعتزاز في ضمائر الكبار والصغار، بحيث لا يزاحمه نظام أو مذهب آخر للحياة، أو وطن أو قومية أو نعرة من النعرات، فدين المسلم أغلى ما يعتز به، ويحرص عليه، وفي سبيله يضحي بالغالي والنفيس.

خامساً: المحافظة على شعائر الإسلام، وبخاصة أركانه العملية الأربعة الكبرى، وتربية الأجيال على احترامها وتوقيرها، فمع أنها غاية في نفسها، لكنها تعدُّ من أعظم الوسائل التربوية لتكوين الأنفس المؤمنة والأخلاق الفاضلة.

سادساً: إحياء دور المسجد، وتحقيق رسالته، كي يعود لسالف عهده مركز هداية وإصلاح، جامعاً للعبادة، ومنارة للتعليم، ومدرسة للثقافة، ومعهداً للتربية، وندوة للتعاون، وبرلماناً للتشاور، وداراً للحكم، ومنبراً للحق والقضاء.

سابعاً: مقاومة البدع والأباطيل الدخيلة على الدين على مر العصور، سواء ما كان منها في العقائد، أم العبادات، أم التقاليد، والرجوع بالإسلام إلى وضوحه وبساطته وصفائه، مما كان عليه حال سلف الأمة في القرون الثلاثة الأولى.

ثامناً: إلزامية التعليم، ووضع الخطط لمحو الأمية، وشمول التعليم كافة المجالات النظرية والعلمية والأدبية والدينية والدنيوية والتجريبية والتطبيقية، وتدريس الإسلام كمادة أساسية في جميع المراحل، وتوجيه العناية في دراسته إلى المبادئ والأصول التي تعمل على وحدة المسلمين، وإعادة النظر في مناهج التعليم، وتوجيه عناية خاصة إلى العلوم الإنسانية (التاريخ، والفلسفة، والتربية، وعلم النفس، والاجتماع، والاقتصاد)، لما يحويه بعضها أحياناً من أفكار مناوئة للإسلام.

تاسعاً: وضع خطة لنظام ثقافي إسلامي موحد ومستقل الهوية والانتماء، غير مزدوج الروح والمصدر، بحيث ينشئ عقلية واحدة مميزة بالفكر والمنهج، لكل أبناء الأمة الإسلامية، والتي تمثل العقلية الإسلامية المعتدلة.

عاشراً: أن تكون شريعة الله هي العليا في جميع بلاد المسلمين، بحيث لا تقابلها شريعة، فلا شريعة معها، ولا فوقها.

حادي عشر: تربية الأمة على أنها أمة واحدة تهدي إلى الحق، وتعدل به بين الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] هذه الأمة الوسط التي جعل الله لها مقام الخيرية على سائر الأمم بحقها وشروطها، وهي إن قامت فيها هذه الخطوات العملية كتب الله لها الخلود.

لقد بقيت الأمة الإسلامية رغم المحن والأزمات حافظة لكتاب ربها، محفوظة بعناية الله، فهي من أكبر آيات الله بعد كتابه العزيز، ولو أن أمة أخرى تعرضت لما تعرضت له الأمة الإسلامية من كيد وبطش لما كان لها اليوم وجود. والأمة اليوم وإن كانت تبدو مفككة ضعيفة، لكنها تحمل في ذاتها عوامل الابتعاث، وهي في ابتعاثها المأمول لا تحتاج إلى وقت طويل، وقد أدرك بعض المستشرقين ذلك فقاله وحذَّر منه.

المبحث الثاني: ويبحث في مظاهر وحدة الأمة، ومعالم بناء الجماعة، وفيه المطلبان الاثنان الآتيان:

المطلب الأول: مظاهر وحدة الأمة الإسلامية. لوحدة الأمة الإسلامية عوامل متحدة، وقواسم مشتركة، وهي بمجموعها تشكل الصورة المثالية، والدعم الأساس، لوحدة الأمة وقوتها، وهذه المظاهر عديدة ومتنوعة، نلقي الضوء على ثلاثة من أهمها، وهي:

أولاً: وحدة الانتماء: الناظر في واقع الجاهلية قبل الإسلام يلحظ أن أسباب الخصام بينهم قد اجتمعت على وجود قاسم مشترك بينهم من اختلاف في المعتقد، وخلاف في الرؤية والهدف، وشقاق في المقاصد، وعدم الالتقاء على مصالح تجمعهم إلا رابط المصلحة الشخصية، فكانوا وثنيين ومشركين وكفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، فجاء الإسلام بعقيدته الصحيحة الواضحة، ورسالته

النيرة الهادفة، فجعل من العرب خير أمة لا لعروبتهم، أو قوميتهم، أو قبليتهم، إنما استحقوا رتبة الخيرية لإيمانهم بالله تعالى وتوحيده، والتئام كلمتهم على لُحْمَة اعتقاد بفكر حضاري رشيد، وسُدَاة إخلاص لراية موحدة، جعلت فيهم الخيرية والأفضلية بتمسكهم بهذا الدين. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، هذا التكوين الذي جمعهم بعد شتات وفرقة، ووحَّدهم بعد تمزق وضياع، إنما صاغهم صياغة ربانية قائمة على أساس الدين والعقيدة الصحيحة، وضمَّهم تحت راية التوحيد، فكانوا سادة الدنيا، بعد أن كانت العصبية والعنصرية تعيث فساداً بهم، والقبلية والفئوية تهدم كل القيم فيهم، لتجعل منهم أقواماً شتى ينتصر الظلم والاستبداد فيهم، (إن الإسلام لا يلغي الانتماءات للأوطان والقبائل والشعوب، لكنه لا يسمح أن تجعل لغير ما أراده الله لها، إن حكمة الله اقتضت تقسيم البشر إلى شعوب وقبائل للتعارف لا للتفاضل. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]،إن الآصرة التي تجمع المسلمين هي الإسلام، وفي ظل هذه الآصرة تتجمع القبائل والشعوب، وسعي المرء في شأن قومه وأهله من الفضائل التي يحمد الإسلام أصحابها، ولكن الإسلام لا يرضى أن ينصر المرء قومه أو بني عشيرته، أو الذين يشاركونه في اللون محقِّين، أو ظالمين..)[(١)].

ثانياً: وحدة المشاعر: رغم ما تفرضه ظروف وطبيعة المدِّ الإسلامي من تباعد الأقطار، ونَأْيِ المسافات بحكم الظروف الجغرافية لانتشار الإسلام في أرجاء المعمورة، إلا أن أهم ما يميز الأمة الإسلامية على امتدادها ما يتمتع به أبناؤها من وحدة المشاعر والعواطف، والصلة الروحية بينهم، والقائمة على معاني الحب والإخاء والولاء، فهم جسد واحد، وكيان واحد، في الآمال والآلام، مهما تنوعت فيهم الأوطان، وتباعدت بهم المسافات، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى فيما رواه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر

(١) محاضرات إسلامية هادفة، الأشقر: صفحة: ٢٤٧.

الجسد بالسهر والحمى)[1]. كما طبَّق الرسول الكريم ﷺ هذه المعاني عملياً من أول لحظه في بناء الدولة، حيث قامت على أسس ثابتة، ومرتكزات داعمة، فكان أن ألَّف بين الأوس والخزرج، ليكونوا أمة الأنصار في المدينة، يستقبلون إخوانهم المهاجرين من مكة، وتقوم دولة الإسلام على هذا النسيج المتناغم بين الحب والإخاء، والتعفف والإيثار، والتضحية والفداء، والتراحم والصفاء، والعزة والإباء، فكانوا مثالاً يستحق الثناء في قرآن تتلى آياته، يقول تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ثالثاً: وحدة الهدف: قضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون ابن آدم مستخلَفاً في هذه الأرض ليعمرها، فكانت عناية الله بهذا الإنسان اهتماماً وتكريماً، وتشريفاً وتكليفاً، فالله تعالى قد تنزَّه عن العبث في خلقه، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ومن حكمته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليكون للإنسان من وراء ذلك رسالةٌ يؤديها، وهدفٌ موجَّهٌ في هذا الكون، وفي تفحُّص أبعاد هذه الرسالة نلحظ أنها ذات أبعاد استراتيجية ثلاثة متكاملة:

أولُّها: تحقيق التوحيد: ويقصد به تحرر الإنسان من عبودية غير الله، وتحقيق جوهر الدين في توحيد الله والإيمان به، إذ الإيمان بالله تعالى جوهر الإسلام وأساسه، وهوية الأمة الإسلامية ورسالتها. وهو ما تربت عليه الأجيال المتعاقبة من السلف الصالح لهذه الأمة، فكانوا بدوراً ساطعة في سماء الإنسانية، ومثالاً مشرقاً مشرِّفاً لكل القيم الفاضلة. وكانت الدعوة إلى توحيد الله والإيمان به مهمة جميع الرسل، فما من رسول إلا دعا قومه ليعبدوا الله ويوحِّدوه، ونستشهد ببعض الشواهد على ذلك. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال أيضاً: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث: ٢٥٨٦.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وها هو رسولنا الكريم ﷺ يحدد هدف رسالته في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ولا شك أن استشعار توحيد الله في قلب العبد يحرِّره من كل مظاهر الشرك والكفر، ويوجِّهه للطريق الأقوم، ويعطيه هذا التوجُّه قوة روحية وإيمانية عظيمة، يجد فيها عونه، ويستمد منها قوته المستمدة من قوة مصدر هذا التوحيد. فهو حين يستشعر عظمة توحيد الله في قلبه، ويعلم أن الأمر كله بيد الله تعالى، فلا ينفع ولا يضر، ولا يحيي ولا يميت أحد سواه، حين يؤمن بهذا حقاً فهو يعلو فوق كل المغريات والشهوات والفتن، ويتسامى بهذه العقيدة سمواً رفيعاً، لأنه يستمد عظمته من صفاء عقيدته، ويستلهم رشده من نقاء إيمانه.

وثانيها: تحقيق العبودية: إن الهدف من خلق الإنسان هو عبادة الله تعالى، ونتذكر في هذا المقام قول الحق سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال ابن كثير: أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وليقرُّوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وهذا اختيار ابن جرير[(١)]. ويفهم من هذا وجود حقيقتين: **الأولى:** هناك هدف محدد وغاية معينة وراء خلق الثقلين، يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، من أدَّى هذا الهدف وحقق الغاية منهما فقد أصاب ورشد، ومن أخل بهما فقد هلك وغوى. **الثانية:** أن مفهوم العبادة يتجاوز أداء الشعائر والمناسك، ليطال بمفهومه العام كل مناشط الحياة، والسلوك والمظاهر، ليستغرق شتى صنوفها، في عبودية والتزام وانضباط بقواعد العبادة وضوابطها وقيودها. فالعبادة المقصودة شرعاً ما توافرت فيها عناصر ثلاثة رئيسة، وهي:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/٢٣٠.

العنصر الأول: الخضوع والتذلل والانقياد الكامل لعظمة الله تعالى، وهنا تتمثل عبودية الفكر والإرادة. **والعنصر الثاني**: العنصر العاطفي، والمتمثل بحقيقة حب الله تعالى، وهنا تتمثل عبودية القلب. **والعنصر الثالث**: العنصر العملي، والمتمثل بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وهنا تتمثل عبودية الجوارح. وبدون توافر هذه العناصر الثلاثة مجتمعة، فإن نقصاً وخللاً ما في تحقق العبودية الصادقة، لا بد أن يُسعى لتداركه وتلافيه وتجاوزه.

وثالثها: تحقيق عمارة الأرض: فالله تعالى قد استخلف ابن آدم على الأرض وأنشأه منها ليعمرها، وأوكل إليه عمارة الكون، وعهد إليه أن يبنيه، ويحقق المصلحة الإنسانية العليا في هذه العمارة وذاك البناء. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]. قال ابن كثير: استعمركم فيها: أي جعلكم عمَّاراً تعمرونها وتستغلونها[1]. والأمة الإسلامية هي المعنية بتحقق هذه الأهداف الثلاثة، وتحقيق وحدتها فيها، فهي أمة خاتمة للأمم، وأمة الوسط، ورسولها ﷺ خاتم الرسل، ورسالتها عالمية ناسخة لما قبلها، والإنسان في عموم البشرية بعد بعثة النبي الكريم ﷺ لا يخلو من تصنيفه ضمن إحدى الأمتين فيها؛ أمة الدعوة، أو أمة الإجابة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧][2].

المطلب الثاني: معالم من سيرة الرسول الكريم ﷺ في بناء الجماعة. خاطب الله تعالى نبيَّه ﷺ في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، في كتاب تكفَّل بحفظه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فكان إعلاناً خارقاً للعادة في سعته وشموله، وإطاره الكبير، ومساحة زمانه ومكانه، مما يحتم الوقوف عنده تبصُّراً وتحليلاً. فقد خلَّفت اليهودية إرثاً مشوباً بإفراط في العنصرية، بعيد عن كل معاني الرحمة بالإنسانية، فما استحقت البقاء ولا الاستمرار، كذلك اتسمت المسيحية بتفريط في تسامحها وعطفها، فعجزت عن قيادة العالم لقصورها في التطبيق، فضلاً عن الديانات الوضعية الأخرى، وخاصة الآسيوية والشرقية، وهي أقل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤٤٧/٢.

(٢) الأمة في الرؤية الإسلامية، رحيم: صفحة: ٩٣.

من أن يقارن بها في ظلمها وتقديسها ونبذها ورؤاها المنحرفة، والتي لا تستحق البحث لشذوذها عن الإلْف والمعقول. إلا أن الرحمة التي تحلى بها إعلان القرآن في بعثة هذا النبي الكريم ﷺ، قد أفاضت على الإنسانية مسحة جديدة من الحياة والنشاط، كما كانت بلسماً في شفائها من الأسقام والعِلاَّت وحلِّ المعضلات.

إن مهمة الأنبياء إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق، ومنح الأجيال علم النجاة، وهكذا كانت مهمة البعثة النبوية بعد أن وصلت الإنسانية إلى مرحلة من الانهيار والغرق والدمار. وقد صوَّر القرآن الكريم هذه الحالة في قول الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، كما جسَّد النبي ﷺ هذا المعنى في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثَلِي كمَثَل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدواب التي في النار يقعْنَ فيها، وجعل يحجزهن ويغلبْنَه فيتقحَّمن فيها، قال: فذلكم مثَلِي ومثَلُكم، أنا آخذ بحُجَزكم عن النار، هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ عن النار، فتغلبوني تقَحَّمون فيها)[١].

حقاً لقد منحت بعثة النبي الكريم ﷺ الإنسانية مآثر خالدة؛ فكانت عقيدة التوحيد التي أنقذتها من الهلاك، وتجلت معاني الرحمة في مبادئ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية، في إعلان عرفة العالمي: (يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى)[٢]. والذي تضمَّن وحدة الربوبية، ووحدة البشرية معاً، فكانتا دعامتين قام عليهما الأمن والسلام العالميان في كل زمان ومكان، فالإنسان أخ الإنسان من جهتين؛ فالرب واحد، والأب واحد، كما تضمَّن هذا الإعلان كرامة الإنسان وسموَّه، وحارب اليأس والتشاؤم، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز في النفس. حقاً إن رسول الله ﷺ رسولُ الوحدة، وبشيرٌ ونذيرٌ معاً. لقد جمع بين الدين والدنيا، وقضى على الانفصال بينهما، ووحَّد الصفوف المتنافرة، والمعسكرات المتحاربة، ليضعها في جبهة موحدة من

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم، رقم الحديث: ٢٢٨٤.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد: عن أبي نضرة، حدثني مَن سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فذكر الحديث. إسناده صحيح. الموسوعة الحديثية لمسند الإمام أحمد بن حنبل: ٤٤٧٤/٣٨، رقم الحديث: ٢٣٤٨٩.

الإيمان والاحتساب، والعطف على البشرية، وابتغاء رضوان الله، وعلَّمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وبيَّن أن أساس الأعمال والأخلاق هو صدق الهدف الذي ينشده المرء في إخلاص النية، فقال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[(١)]. لقد أفاقت البشرية من سبات عميق دام قروناً طويلة ببعثة النبي الكريم ﷺ، بل تغيَّرت الدنيا بأسرها، وتحولت إلى واقع جديد شهد نشأة الأمة الفتية القائمة على أسس العدل والحكم الرشيد، وبناء الدولة التي قادها رسول الله ﷺ بحكمته، ثم امتدت الدولة، وتنامت الأمة على أسس الحق والعدل، فكانت سيرته الطيبة العطرة ﷺ تطبيقاً عملياً لتوجيهات القرآن الكريم، ومعْلَماً أساساً من معالم وحدة الجماعة في رقيِّ الأمة[(٢)].

المبحث الثالث: ويبحث في خصائص الأمة الإسلامية، وعوامل رقيِّها، وأسباب تردِّيها. من المتفق عليه أن جميع الأمم والأقوام والمجتمعات البشرية تمرُّ بفترة صعود وتألُّق، بما تتمتع به من خصائص ومقومات، كما أن حالها يؤول إلى السقوط والتردِّي بحكم ما يعتريها من نكسات ومعوقات، وتلك سنَّة الله في خلقه. والأمة الإسلامية إحدى هذه الأمم، تنتابها هذه التقلبات والتجاذبات، ونستعرض في هذا المبحث خصائص الأمة الإسلامية، وعوامل رقيِّها، وأسباب تردِّيها، وذلك في المطالب الثلاثة الآتية:

المطلب الأول: خصائص الأمة الإسلامية. تميزت الأمة الإسلامية بخصائص أهَّلتها لتتبوأ مركز الصدارة والريادة والشهادة والتفضيل على سائر الأمم، بما تبثُّه في كيان الأمة من الروح والقوة، وبما تبعثه فيها من البشرى والأمل، ونلحظ ذلك في الخصائص الثلاث الآتية:

---

(١) وتمامه: عن عمر ﷺ على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه). صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: ١.

(٢) فضل البعثة المحمدية على الإنسانية، ومنحها العالمية الخالدة، الندوي: صفحة: ١٩.

أولاً: الوسطيَّة: وتدل في اللغة على معان متقاربة، تدور حول العدل والنصف والخيار والفضل. فأوسط الشيء أفضله وخياره. وقد تناول القرآن الكريم هذه المفاهيم في خمسة مواضع: في قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥]، ومعناه: التوسط في المكان، والدخول في الوسط، وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨]، أي: أعدلهم قولاً، وأعقلهم، وأمثلهم، وأفضلهم، وقوله: ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، أي: من أعدله، وأقصده، وأوسطه في القدر، وأحسنه، وقوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: أفضلها وأوسطها محلاً ومقداراً، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. أي: عدولاً. وتتجلى معاني الوسطيَّة في هذه الآيات جليَّة في خصائص هذه الأمة؛ فهي قائمة على استقامة المنهج، والتوازن والاعتدال، والبعد عن الميل والانحراف، والابتعاد عن الإفراط والتفريط؛ في الاعتقاد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك، والتشريع، والعلاقات الاجتماعية والدولية، والمنهج التربوي، والتاريخ، والدين الذي وازن في تشريعاته بين تشدد اليهودية، وتسامح النصرانية، والحضارة التي وازنت بين مطالب الروح والجسد، وحتى وسطية الجغرافيا والموقع والمناخ، فالكعبة المشرَّفة مركز الأرض، في قارة تسمى القارة الوسطية. فالأمة الإسلامية شاهدة على الأمم الأخرى، والمسلم مطالب بعمارة الأرض، وهو مستخلف فيها، والوسطية تمثل منطقة أمان وسلام، وبعد عن الخطر والفساد، ومركز قوة ووحدة وتلاق. والأمثلة والشواهد لا تحصى حول هذه المعاني الجليلة لخاصِّية الوسطيَّة[(١)].

ثانياً: الخيريَّة: وتدور معانيها في اللغة على ما يقابل الشر، وما هو ضد الضر، وللدلالة على الأفضل والخيار، والطيب النافع، والأولى والأحسن، والاختيار والاصطفاء، والاجتباء والانتقاء. وقد تناول القرآن الكريم هذه المفاهيم في أربعة مواضع: في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ

(١) لسان العرب، ابن منظور: ١٥/١٦٦، والوسطية في القرآن الكريم، الصلَّابي: صفحة: ١٧، والأمة في الرؤية الإسلامية، رحيم: صفحة: ١٤٩.

﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥_٥٦]، للدلالة على كل طيب ونافع، وكل ما يُرغب فيه من عقل وعدل ومال وفضل. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ﴾ [النور: ٣٣]، للدلالة على النفع والثواب، وقوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]، للدلالة على الأفضل والأحسن، وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] للدلالة على الاجتباء والاختيار، والاصطفاء والنقاء من كل كدر، قال السعدي: أي يختار من خليقته مَن يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته، ومنه أن اجتبى هذه الأمة، وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها(١). ولخيريَّة هذه الأمة أبعاد عديدة، أهمها:

البعد الأول: أفضلية الأمة على سائر الأمم، بما تميزت به من خصال؛ فرسولها ﷺ أفضل الرسل، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر)(٢). وكتابها أعظم وأفضل الكتب، تكفَّل الله بحفظه، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ٩]، ووصفه بأنه أحسن الحديث، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي: صفحة: ٧٥٥.

(٢) حديث حسن. سنن الترمذي: كتاب المناقب، باب أنا أول الناس خروجاً، رقم الحديث: ٣١٤٨.

﴿وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، كذلك عموم هذه الرسالة للعالمين، واستمرارها إلى قيام يوم الدين فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

البعد الثاني: تأثير رسالتها في العالمين، فقد غيَّرت طباع الناس، وأثَّرت فيهم إيجابياً، وصيَّرتهم إلى الأفضل عقلاً وسلوكاً، وصاغت من البشرية الخير الكثير، ففتحت هذه الأمة الراشدة عقولاً صُمَّاً، وهدت قلوباً غُلْفاً، وبصَّرت بالحقائق عيوناً عُمْيَاً، وشادت حضارة كبرى قامت على أساس العلم والمعرفة، والعقيدة الصحيحة، والمنهج الرباني.

البعد الثالث: انسجامها مع فطرة الإنسان، وطبيعة الكون، وأنماط الحياة، وطبائع الأمم، وانفتاحها على المجتمعات، واحترامها وتقديرها للعقل، وإنصافها للحق، واستمرار انتشارها في العالم رغم التحديات، لكن هذه الخيرية مشروطة بثلاثة شروط، حددتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. قال ابن عاشور في تفسيره: "وُجِدتم على حالة الأخيرية على جميع الأمم، أي حصلت لكم هذه الأخيرية بحصول أسبابها ووسائلها، لأنّهم اتّصفوا بالإيمان، والدّعوة للإسلام، وإقامته على وجهه، والذبّ عنه النقصانَ والإضاعة، لتحقّق أنّهم لما جُعل ذلك من واجبهم، وقد قام كُلٌّ بما استطاع، فقد تحقَّق منهم القيام به، أو قد ظهر منهم العزم على امتثاله، كُلَّما سنح سانح يقتضيه، فقد تحقَّق أنهم خير أمَّة على الإجمال، فأخبر عنهم بذلك"[(١)].

ثالثاً: وحدة الأمة: استعرضت سورتا (الأنبياء) و(المؤمنون) قصص عديد من الأنبياء، ثم ختمت الأولى السلسلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وختمتها الثانية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]،

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٤/٤٩.

لتقررا معاً أن سلسلة الأنبياء الكرام إنما تشكل أمة واحدة في حملهم لرسالة واحدة، ووجود هدف واحد، وإيمان برب واحد، وهو ما منحهم قوة وامتداداً وعمقاً، على اختلاف في البعد الزماني والمكاني. يقول سيد قطب: "إن هذه أمتكم أمة الأنبياء أمة واحدة، تدين بعقيدة واحدة، وتنهج نهجاً واحداً، هو الاتجاه إلى الله دون سواه، أمة واحدة في الأرض، ورب واحد في السماء، لا إله غيره، ولا معبود إلا إياه، أمة واحدة وفق سنَّة واحدة، تشهد بالإرادة الواحدة في الأرض والسماء"[1]. فوحدة الأمة الإسلامية تشكل قوة صلبة لا يستهان بها، في الانتماء للإسلام، والعبودية لله رب العالمين، واتباع المنهج القرآني. وهكذا كان انتماء الصحابة الكرام إلى الدائرة الكبرى، مع احتفاظ كل فرد منهم بانتمائه إلى الدائرة الكبيرة وهي الأقوام، والانتماء إلى الدائرة الأصغر وهي القبيلة، والانتماء إلى الدائرة الصغرى وهي الأسرة، دون حرج أو تضادّ، طالما تقع كل دائرة في مكانها المناسب، إذ لا تضادّ بين الولاء للإسلام، والانتماء للقوم والقبيلة والأسرة في آن واحد، لأنه فطري في الأمم، ولأنها انتماءاتٌ تعدديةٌ داخل الإطار العام للوحدة، وتنوعٌ للإثراء والتكامل، واختلافٌ للتعارف والتعايش. والقرآن الكريم قد أقرَّ هذه الظواهر الفطرية في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد حذَّر من تقليد الأمم السابقة في التفرُّق والتنازع، والاختلاف في الأصول والمرجعية الفكرية والعَقَدِيَّة، مما يؤدي إلى الفشل وتفكك الوحدة. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال: ٤٣][2].

المطلب الثاني: عوامل رقيِّ الأمة الإسلامية. تمتلك الأمة الإسلامية من الطاقات والإمكانات والمقومات المادية والمعنوية ما يجعلها في طليعة الأمم، ويمنحها مكانتها، وأهم هذه المقومات **القوة**

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: ٢٣٩٥/٤.

(٢) الأمة في الرؤية الإسلامية، رحيم: صفحة: ١٨٤.

العددية، فهي تملك طاقة بشرية ضخمة، تقدر بنحو مليار ونصف، وفي تزايد مستمر، ولله الحمد، وهي طاقة كبرى إذا ما أُحسن استغلالها، كذلك **القوة المادية والاقتصادية**، فهي تملك مساحات شاسعة من الأرض الخصبة الممتلئة بالمعادن والنفط والثروات المدفونة فيها، إلى جانب الأنهار والبحار، إضافة إلى **القوة الروحية**، والتي تستمدها من رسالتها التي أورثها الله إياها، وميَّزها بها عن سواها، هذه الرسالة التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة. فإذا كانت الأمة الإسلامية تمتلك هذه المقومات قاطبة، فحريٌّ بها أن تكون الأقوى والأقوم والأرشد والأفضل؛ رقياً إنسانياً، وتقدماً حضارياً. ويمكننا أن نحدد معالم هذا الرقيِّ فيها، من خلال تجاوز أسباب الهلاك التي أسلفنا ذكرها في المطلب السابق، والتي يتلخص أمرها في التزام القانون الإلهي الثابت، والمتمثل بسنَّة الله في التغيير، في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١١]، ويمكننا أن نحدد أهم هذه العوامل في النقاط العشرة الآتية:

أولاً: الإيمان الصحيح على منهج النبوة وطريق السلف الصالح من الأمة، ولا شك أن المؤمن يستمد قوته من إيمانه بالله تعالى، وهي قوة لا يمكن أن تقف أمامها أيٌّ من معوقات التثبيط. لأن الإيمان الصحيح يحرر ضمير ووجدان صاحبه من كل سلطان غير سلطان الله تعالى. وقد زخر تاريخنا الإسلامي بنماذج رائعة لهذا المعنى من وقائع وأحداث عظام، أثبتت أن الإيمان قوة تفجِّر الخوارق بأمر الله تعالى.

ثانياً: التمسك بالدين، والتزام الحق، والاعتصام بحبل الله المتين، اعتصاماً يزهق ويندحر أمامه الباطل، فالمؤمن في أي موقع هو فيه، سواء أكان في أعلى هرم السلطة، أم في أدنى درجات القاعدة مدعو لذلك، ومطالب بتحقيقه، بل ومسؤول أمام الله والآخرين عن هذا التمسك والاعتصام، وهو قوة لا تعدلها قوة، وقد أمر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣_٤٤].

ثالثاً: إعداد القوة فيما نستطيع من إمكانات بشرية وكونية وطاقات علمية وعملية، وبمختلف أشكال الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة الأعداء بمثل ما يواجهون به وأكثر، فالله تعالى أمر بذلك فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

رابعاً: اغتنام الطاقات البدنية، وتنمية المواهب الفكرية، وتربية العقول، وتهذيب الأرواح، وتقوية الأجسام، لتتمكن من حمل الأمانة، والجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة التوحيد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ودفع الظلم، ورفع الضيم، والدفاع عن حرمة الدين والنفس والعرض والعقل والمال، دونما تعدٍ على الآخر، وظلم لحقوقه، وبخس لوجوده.

خامساً: الوحدة والاتحاد والاجتماع والتلاقي حول راية الحق والتوحيد؛ الذي يشمل توحيد العقيدة والكلمة والصف والغاية والهدف. فالاتحاد قوة، والتفرق ضعف، والمسلم ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، ولا شك أن القوة المادية والعددية والمعنوية والطبيعية التي تتمتع بها الأمة الإسلامية جديرة بالنجاح، إذا ما أحكم استغلالها وتوظيفها صحيحاً.

سادساً: احترام العهود والمواثيق، والقوة والصدق في تنفيذها، ومنع النكوث والخُلْف والخيانة في بخس الحقوق وظلم العباد. قال تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١].

سابعاً: احترام حق الإنسان مطلق الإنسان، وحفظ كرامته، وكفالة حقوقه المعيشية والعلمية والإنسانية والاجتماعية، فالله تعالى قد كرَّمه، ومن حقه أن يحيا عزيزاً مكرَّماً، بغض النظر عن دينه أو لونه أو عرقه. والأمة الإسلامية على مختلف المستويات؛ حكومات ومنظمات وهيئات وفئات وأفراداً مطالبون جميعاً بتوفير هذه الحقوق للأفراد والرعية. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

ثامناً: إقامة المجتمع الإسلامي على أساس من الحرية والعدالة والمساواة بين الرعية، والحكم الرشيد الصالح الذي تكون السيادة فيه لله تعالى ولشرعه الحنيف، ثم لعباده الصالحين، ونبذ التفرقة

والتمييز والعنصرية والفئوية والطائفية وظلم العباد واضطهاد حقوقهم، ومصادرة حرياتهم، وامتهان كرامتهم.

تاسعاً: معرفة مواطن الضعف والخلل، وتحديد أهم الأمراض الاجتماعية والسلوكية والإدارية في المجتمع المسلم، والسعي للتطهر منها، والتخلص من آفاتها، ليأخذ الفرد المسلم طريقه نحو العزة والسمو الروحي، ويؤدي دوره الإيجابي إنتاجاً وعطاءً في مجتمعه الذي ينتظر منه الكثير من التفاني والتضحية.

عاشراً: الأخذ بأسباب النصر وعوامل النجاح التي ذكرها القرآن لنا، من صدق النية وحسن الأداء والأخذ بالأسباب الصحيحة والتخطيط السليم والإعداد القويم، مع حسن التوكل على الله في تحقيق الغاية في النجاح[1].

المطلب الثالث: أسباب تردّي الأمة الإسلامية. لقد قصَّ القرآن الكريم علينا أحوال أمم في التاريخ البشري، بلغت ذروة المجد في شموخها، لكنها سرعان ما انهارت، وهوت وضاعت، وأصبحت أثراً بعد عَين، واستحقت عقاب الله تعالى، ولعلنا ندرك أسباب هلاك وزوال هذه الأمم عموماً، لأخذ العِبرة والعِظة، وبيان وجه المقارنة والمفارقة بين مبررات الصعود والترقي، ومعوِّقات الهبوط والتردّي. وقد أشار القرآن الكريم في مواطن كثيرة من قصصه إلى أحوال هذه الأمم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. والأمَّة الإسلامية أولى بالعِظة والعبرة ممن سبقها من الأمم، فتتعظ بمراجعاتها لمراحلها، وتحسن تقييمها لمخرجات سلوكها، وتتجنب مزالق الردى في خطى مواقفها. والراصد لأحوال الأمم

(١) أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب، الصواف: صفحة: ٥٦.

يستطيع أن يحدد أسباباً جامعة لها، وللأمَّة الإسلامية أن تحدد نصيبها من هذه الأسباب، وهي كثيرة، نجملها في النقاط العشرة الآتية:

أولاً: الشرك والكفر: ويمثَّل له بما يعانيه بعض أبناء الأمة من مظاهر بِدْعيَّة، وانتماءات شِركيَّة، وولاءات ضلاليَّة، في الفكر والاعتقاد، تودي في نهاية المطاف إلى الكفر ومقدماته، بسبب انتشار الجهل بالدين، واللهو واللغو، والفسوق والعصيان، والإثم والفجور، والبعد عن أهل العلم، والتهاون في تقليد الكفار في سلوكهم وأحوالهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ [النساء: ١٣٧]، والمراد منه الذين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرات وكرات، فإن ذلك يدل على أنه لا وقع للإيمان في قلوبهم، إذا لو كان للإيمان وقع ورتبة في قلوبهم لما تركوه بأدنى سبب، ومن لا يكون للإيمان في قبله وقع فالظاهر أنه لا يؤمن بالله إيماناً صحيحاً معتبراً، فهذا هو المراد بقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، وليس المراد أنه لو أتى بالإيمان الصحيح لم يكن معتبراً، بل المراد منه الاستبعاد والاستغراب على الوجه الذي ذكرناه[1].

ثانياً: الاستكبار: وهو المعاندة والكبرياء عن قبول الحق، وهو مرض اجتماعي ناتج عن سوء توزيع الثروة، والجهل المؤدي للغرور والنفور ممن هم أدنى حظاً أو رتبة، ويتمثل في استكبار الحاكم وغروره، وبسط سلطانه على المحكومين تعسُّفاً، وقد أخبر القرآن عن أحوال ومآل مَن استكبر من الأمم، فقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٩_٤٠].

ثالثاً: النفاق: وأشده خطراً ما يأخذ طابعاً عقَدِياً، إذ يتمثل في إبطان الكفر وإظهار الإسلام، ويتمثل في ظهور حركات ومذاهب وأفكار تائهة؛ كالعَلمانية والقومية واللادينية والشيوعية، ودعاة هذا النفاق يروِّجون للغرب وقوانينه، منبهرين بزخرفته العبثية. وهناك النفاق العملي الذي أصيب به جلُّ أبناء الأمة ــ إلا مَن رحم ربي ــ من خُلْفٍ في الوعد، وفجور عند الخصومة، وخيانة في

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الرازي: ٧٩/١٢.

الأمانة، والكذب في الحديث. قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

رابعاً: ترك الجهاد: وسببه وفرة الخيرات بعد أن منَّ الله بالنعم على الناس، فاستدعى ذلك الركونَ لمظاهر الترف في الحياة، والتثاقل إلى الأرض، وترك الجهاد في سبيل الله، ولا شك أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو ماضٍ إلى يوم القيامة بشروطه وضوابطه، وتركه خصلة نفاق، إلا أن يغزو، أو يحدث نفسه بالغزو قبل موته، وقد حُذِّر من عواقب تركه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨_٣٩]. وقد رجَّح الرازي والقرطبي عذاب الدنيا والآخرة[(١)]، واستُدِلَّ على عذاب الدنيا بما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله، سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم)[(٢)].

خامساً: تبديل أحكام الشريعة: وهو ما تعانيه غالب الدول الإسلامية عقب سقوط الخلافة، من الاحتكام للقوانين الوضعية، والاكتفاء بأحكام الشريعة الإسلامية في مجال ضيق محدود من أحكام الأحوال الشخصية، وقد جاءت الآيات تحث على الاحتكام للشريعة في شتى شؤون الحياة، ونعتت من لا يحتكم إليها بالكفر والظلم والفسوق، على التتالي في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

---

(١) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الرازي: ٦٣/١٦، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٤٢/٨.

(٢) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في سننه: كتاب البيوع، باب في النهي عن العِيْنَة، رقم الحديث: ٣٤٦٢. والعِيْنَة: أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به. النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير: ٢٧٨/٣.

وقد اختُلف في المقصود بهذه الآيات؛ فقيل: كلها في الكفار، وقيل: هي عامة، ولا يقصد بالكفر فيها الخروج من الملة، وقيل: إنها في اليهود، فهذا من أحسن ما قيل في هذا[1].

سادساً: التفرق والتمزق: وهو معوِّق هام وخطير، وداء عضال ينخر في كيان الأمة، بدافع الولاءات المتباينة؛ كولاء النسب، أو اللغة، أو اللون، أو الوطن، أو الحزب، أو الجماعة، أو لمخالفةٍ في المنهج والرؤية. وقد نعى القرآن الكريم حال من يفرِّق دينه، ويتقسم إلى شيع وأحزاب وولاءات، فقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، كما نهينا عن ذلك في صريح القرآن الكريم. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

سابعاً: انتشار الفواحش: وهو من البلاء العام الذي أصاب الأمة، نتيجة ضعف في تديُّنها، وبعدها عن علمائها، وإهمالها لآداب شرعية، وأحكام فقهية، وأصول اجتماعية، فانتشرت الرذيلة، وشاعت الفاحشة، حتى أصبحت عادة لا تنكر، وكثر القبح والمظاهر المنحرفة. كما لا يُغفل دور بعض القنوات الفضائية، ووسائل الاتصال الاجتماعي، التي تُستَغل في التوجيه الماجن فكرياً وسلوكياً واجتماعياً، إلا ما رحم ربي، ولا شك أن انتشار الفواحش سبب للعقاب، وها هي قصة قوم لوط في القرآن الكريم عنوان العقاب، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٤_٥٧]. وذكر لنا نوع عقابهم، ولون عذابهم، محذراً من فعلهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢].

ثامناً: انتشار المظالم والتعامل بالربا: ويعدُّ من أخطر الآفات المؤذنة بحرب الله تعالى، ومما يؤسف له ذيوع المظالم، واستباحة المحرمات، وظهور الكبائر الموبقات، وأشدها أكل الربا. إضافة إلى شيوع الرشوة، وفساد الجهاز التعليمي والقضائي والتربوي في عامة البلاد الإسلامية، مما ينعكس سلباً على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٩٠/٦، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي: ٤٠٦/١.

الاقتصاد والاجتماع، وجميع هذا تراكمات تنتهي بعقاب الله الجماعي، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

تاسعاً: الظلم والعتوُّ عن أمر الله: وهو تجاوز الحد، ومجاوزة الحق ووضعه في غير موضعه، والنبوُّ عن الطاعة[(١)]، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]. وقد يكون الظلم بين العبد وربه، وهو المتمثل بالشرك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ويكون بين العبد ونفسه؛ قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]، وأخطر الظلم تأثيراً ما كان بين الناس. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، قال الطبري: (بظلم يعني: بشرك، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم، وإن كانوا مشركين، وإنما يهلكهم إذا تظالموا)[(٢)]. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل اعتقاد الشرك، بل ينزل إذا أساء العباد في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم فيما بينهم. وقد ذكر الفقهاء أن حقوق الله تعالى مَبْنِيَّةٌ على المسامحة، وحقوق العباد مَبْنِيَّةٌ على المشاحة، فلا بد من أدائها لأصحابها، أو التراضي والتسامح، وإلا كان ظلماً كبيراً. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

عاشراً: اقتراف الذنوب: وهي الآثام والمعاصي، ككفر النِّعَم، والبطر، والأشَر، وغمط الحق، واحتقار الناس، وظلم الضعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، وجميع ما ذُكر من أخطر أسباب العذاب، واستحقاق العقاب، وسرعة الانتقام، وزوال النعم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦][(٣)].

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي: ١٩/٤، والقاموس المحيط: الفيروزآبادي: صفحة: ١٦٨٨.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ٥٣٠/١٥.

(٣) سنة الله في عقاب الأمم، الشريف: صفحة: ٢٥٩، وأسباب هلاك الأمم، وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، التليدي: صفحة: ٩٣.

الخاتمة: وفيها: **أهم النتائج المستفادة:**

١. وحدة الأمة والسعي لتوحيدها مطلب شرعي وعقدي وفقهي، خاصة في الظروف الراهنة التي بدا تداعي الأمم على الأمة الإسلامية جليّاً، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

٢. الاعتبار بأسباب هلاك الأمم الغابرة، والحذر من الوقوع فيها، والسعي لاتخاذ عوامل البقاء والنماء، وأسباب التقدم والرقي.

٣. الاستفادة من اتحادات قامت على أسس جغرافية ودينية، ومصالح اقتصادية وسياسية، وأهداف مادية، وكتب لها البقاء بفضل التقائها على كلمة سواء، بغض النظر عن صلاح الغايات أو ضلالها. والأمة الإسلامية واضحة المعالم، شريفة المقاصد، نقية الأهداف، أولى بها السعي لاتحاد كلمتها على سواء، وتوحيد رايتها وتعديل صفها وإثبات وجودها لأنها الأمة الراشدة التي تستحق السيادة والشهادة على سائر الأمم.

٤. أهم التوصيات المقترحة:

١. اغتنام وسائل الإعلام والاتصال الاجتماعي المختلفة المسموعة والمكتوبة والمرئية في وحدة الكلمة وتوحيد الأمة، والتزام الجماعة، ونبذ الفرقة والخلاف. والحد من الانفتاح غير المنضبط لتبني الأفكار المخالفة والعقائد الباطلة، وتشجيع التمزق والاختلاف والاعتداد بالرأي، والمجاهرة بالرأي الشاذ ديناً وفكراً وفقهاً وعلماً.

٢. الدعوة لإحياء الولاء لجمهرة الأمة المسلمة والسواد الأعظم منها، والانضمام تحت لوائها، والتحذير من الانقسامات الطائفية والمذهبية والعرقية. متمثلين قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٣. تفعيل دور منظمة التعاون الإسلامي كمظلة سياسية دولية للدول الإسلامية، بعد غياب المرجعية الدينية لأهل السنة اليوم، رغم كثرة عددهم واتساع أرضهم وسعة خيراتهم، إلا أنهم يعيشون ظرفاً لا يحسدون عليه؛ من تكالب أعدائهم عليهم، ونهب خيراتهم، واستذلالهم بالتبعية للآخر، وذوبان الشخصية وضياع الهوية.

ثبت المصادر

١. أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب، محمد محمود الصواف، دار الإصلاح للطبع والنشر، مصر: ١٩٨٢م.

٢. أسباب هلاك الأمم، عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط/ثانية: ١٤١٨هـ_١٩٩٨م.

٣. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: ١٤١٥هـ_١٩٩٥م.

٤. الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل رحيم، دار الكتب القانونية، مصر، الإمارات: ٢٠١٣م.

٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/أولى: ١٤١٨هـ.

٦. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة: ١٣٩٣هـ_١٩٧٣م.

٧. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية.

٨. تأويل مشكل القرآن، محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المكتبة العلمية، المدينة المنورة: ١٩٨١م.

٩. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/أولى: ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م.

١٠. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس: ١٩٨٤هـ.

١١. تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث، بيروت، ط/أولى: ٢٠٠٠م.

١٢. التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر، بيروت: ١٤١٠هـ_١٩٩٠م.

١٣. التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، القاهرة، ط/أولى: ١٤١٠هـ_١٩٩٠م.

١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/أولى: ١٤٢١هـ_٢٠٠٠م.

١٥. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/أولى: ٢٠٠٠م.

١٦. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٩٨٥م.

١٧. سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، عبد السلام بن نصر الله الشريف، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، ط/أولى: ١٤١٥هـ_١٩٩٤م.

١٨. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، بيروت: ١٤١٤هـ_١٩٩٤م.

١٩. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٠٠٤م.

٢٠. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/أولى: ٢٠٠١م.

٢١. فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، ط/ثالثة: ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م.

٢٢. فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة، أبو الحسن علي الحسني الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء، لكهنؤ، الهند: ١٤٢٠هـ_١٩٨٠م.

٢٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط/جديدة مشروعة: ١٣٩٦هـ_١٩٧٦م.

٢٤. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ثانية: ١٩٨٧م.

٢٥. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ثانية: ١٩٩٨م.

٢٦. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ط/سادسة: ٢٠٠٨م.

٢٧. المجتمع الإسلامي، محمد أمين المصري، دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٠م.

٢٨. المجتمع والأسرة في الإسلام، محمد طاهر الجوابي، دار عالم الكتب، القاهرة، ط/ثالثة: ٢٠٠٠م.

٢٩. محاضرات إسلامية هادفة، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان: ١٤١٨هـ_١٩٩٧م.

٣٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، الدوحة: ١٤٠٩هـ_١٩٨٨م.

٣١. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٨٢م.

٣٢. معالم التنزيل المسمى (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق عبد الرزاق المهدوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط/أولى: ١٤٢٠هـ_٢٠٠٠م.

٣٣. معالم الوحدة في طريق الأمة الإسلامية، د. عمر يوسف حمزة، د. أحمد عبد الرحيم السايح، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط/أولى: ١٤١٣هـ_١٩٩٣م.

٣٤. معجم الوجيز، طبعة معتمدة مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة.

٣٥. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت: ١٤٣٠هـ_٢٠٠٩م.

٣٦. مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف، د. عبد الكبير حميدي، فاس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط/أولى: ١٤٣١هـ_٢٠١٠م.

٣٧. المواطن والمواطنة في الدولة الحديثة المسلمة، د. علي محمد الصلَّابي، دار المعرفة، بيروت، ط/أولى: ١٤٣٥هـ_٢٠١٤م.

٣٨. الموسوعة الحديثة، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/أولى: ١٩٩٧م.

٣٩. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط/أولى: ١٤٢٦هـ_٢٠٠٥م.

٤٠. الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلَّابي، المكتبة العصرية، بيروت، ط/أولى: ٢٠٠٦م.

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه